3

الشركات: لندع آلاف العلامات التجارية تزهر وتثمر

إن أي سوق مالية لا يمكن أن تكون واعدة إلا بقدر ما تكون الشركات المدرجة فيها واعدة أيضاً. إن هذا صحيح في شنغهاي أو فرانكفورت. إن إيماني بأسواق الصين ينبع من الشركات القوية في هذا البلد التي لا يحصى عددها، والتي تنبّهت لتوّها إلى إمكانياتها غير المحدودة.

في الصين، لا يستعمل تعبير «بطل قومي» للإشارة فقط إلى فرق الرياضة التي تحقق الفوز؛ إنه علامة مستخدمة من قبل الحكومة لدفع وتكريم الشركات النامية محلياً التي تملك القدرة على دخول مضمار المنافسة العالمية وأن ترسخ بصمة شعار صيني على نطاق عالمي. إنه مثل ميدالية الشرف لأصحاب الريادة. واليوم، لا شك أن كثيراً من الناس قد سمعوا بـ هاير Haier وهي رابع أكبر منتج للأجهزة المنزلية، وكذلك تسينغ تاو Tsingtao لصنع الجعة (مملوكة جزئياً من قبل آن هيوزر – بوش Anheuser – Busch)، أو لينوفو Lenovo مصنعة الكمبيوتر الصيني) التي امتلكت أحد خطوط تصنيع آي بي إم IBM للحواسيب الشخصية، وأيضاً نانجينغ للسيارات التي بدأت بتجميع سيارات إم جي MG الرياضية العريقة في الصين بعدما انتزعت علامة روفر التجارية الإنكليزية.

لكن تلك المنشآت المعروفة هي كتلة صغيرة للغاية مما يمكن أن نطلق عليه جبلاً جليدياً من الأرباح. منذ الآن فصاعداً، سيدفع الطلب الداخلي المتنامي بسرعة في الصين الأرباح نحو الصعود وكذلك أسعار الأسهم. إن ما يزيد عن البليون نسمة من البشر، على ما هو جلّي الآن، هم بحاجة إلى الكثير من الشركات لتصنيع وبيع مكونات المجتمع الحديث بكفاية تزداد باستمرار وبحجم لم يشهده العالم من قبل. هذا يعني أن جنرال إلكتريك الصينية، وأوراكل Oracle الصينية، وجونسون وجونسون الصينية، وسوني Sony الصينية كلها موجودة هناك وجاهزة لتكون من نصيب كل من يكتشفها. وقد يكون مجرد وقت لكي نرى اللغة الصينية مكتوبة على علب وصناديق البضائع.

طلب علامات تجارية جديدة

عندما يتم التفكير في حاجيات المنازل من مواد البقالة، لعل المرء لا يلحظ عبارة LIANHUA على الكيس الذي تعبأ فيه المشتريات سواء كان مصنعاً من الورق أو البلاستيك. لكن عندما ينسحب الأمر على أنواع البضائع داخل أسواق الصين المركزية فإن هذه العلامة التجارية لها من الزبائن ما يفوق خصومها الأجانب المعروفين مثل وول-مارت Wal-Mart وكارفور Carre Four. وابتداءً بمتجر واحد في شنغهاي فإن آخر إحصاء لعدد المتاجر تحت هذا الاسم قد بلغ 3716 متجراً يبيع مختلف أصناف البقالة، وهناك محال التجزئة الصغيرة باسم «Quik» التي تتزايد بمقدار أربع مئة متجر جديد كل سنة. إن أسهم هذه المنشأة مدرجة في بورصة هونغ كونغ منذ إصدارها الأولي سنة 2003، وهي مملوكة من قبل

مجموعة باي ليان Bailian Group التي تعدُّ أكبر تاجر للتجزئة في الصين وتزاول نشاطها في إحدى وعشرين مقاطعة. (والجدير بالذكر أن الصين مقسمة إلى اثنتين وعشرين مقاطعة -وتُحتسب تايوان المقاطعة الثالثة والعشرين- ويضاف لهذه المقاطعات مناطق ذات استقلال ذاتي مثل منغوليا الداخلية، وأربع بلديات ومنطقتان ذواتا إدارة خاصة هما هونغ كونغ وجزيرة مكاو).

تجتهد ليان التي يعمل لديها سبعة وأربعون موظفاً لكي تظل متقدمة على منافسيها الأجانب، ولها دور في وضع معايير لسلاسل محالّ المواد الغذائية. وهي لا تزال تحصد الجوائز من هيئات محال التجزئة لسجلها المتميز في مجال منح امتيازات العلامات التجارية في الصين. ولقد بدأت في تشغيل منافذ بيع خاصة بها في أوروبة. وعندما سيحل موعد افتتاح الألعاب الأولمبية في بيكين فإن الشركة ترمي إلى امتلاك ثمانية آلاف منفذ بيع -في بلد كان فيه، إلى وقت قريب جداً وبالتحديد عام 1999، متجراً واحداً (وأكرر القول واحداً فقط) يستحق أن يدعى سوقاً مركزياً.

واليوم فإن المنشأة الرئيسة في الصين لا توفر فقط اقتطاعات على بضائعها للأمم في الغرب ولكنها ماضية في تشريع الخدمة داخل البلاد لمن يخصونها من المستهلكين. وبحسب تقديرات مكتب الولايات المتحدة لإحصاء العمالة فإن القوة العاملة في الصين التي يبلغ تعدادها ثماني مئة مليون من البشر تتقاضى معدل أجر قدره 0.64 من الدولار في عام 2004، مقارنة بـ 21.11 دولاراً أمريكةً يكسبه نظراؤها في الولايات المتحدة. ومنذ

ذلك الحين رفعت تسع وعشرون مقاطعة من أصل إحدى وثلاثين سقف الحد الأدنى للأجور. لكن الشريحة الأعلى من هذه القوة العاملة لا تزال تعمل من أجل دخل يبلغ 105 دولارات في الشهر. إن تلك الأجور ستستمر في إعطاء المنشآت الصينية تفوقاً هائلاً في رخص الأسعار على المستوى الدولي. لكن الطلب المزدهر والعرض المحدود جعل العمالة غير الماهرة أكثر كلفة في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية -مما دفع دور الأعمال (بما في ذلك جنرال موتورز، فورد، هوندا، موتورولا، وإنتل) لكي تتجه نحو الغرب أكثر فأكثر. وهذا يعني قوة شرائية أكبر لكل شريحة من السكان كلما اتجهت سلسلة العمالة نحو الأعلى.

ترتفع الأسعار في المدن وتزداد الرغبة في طلب العيش الرغيد بسرعة. ويزداد الإغراء أمام العمال ذوي الياقات البيضاء الذين يسكنون في المدن. إن الهم الأكبر لمعظم المنشآت هو الحفاظ على الموظفين المتعلمين حتى لا يذهبوا بعيداً وراء عروض أفضل للعمل. ويحاجج بعض المحللين الذين يعرِّفون «الطبقة الوسطى» بأنها هي التي يبلغ دخل الفرد السنوي فيها 1200 دولار كقوة شرائية، حيث إن الصين يوجد فيها 470 مليوناً يصنفون في خانة الطبقة الوسطى وهو رقم أعلى من عدد السكان في الولايات المتحدة. وبينما يتجه محللون آخرون يتَّسمون بالتحفّظ إلى تقدير العدد ما بين 70 إلى 150 مليوناً، فإن الحكومة تضع هذا العدد قريباً من 250 مليوناً، أو 19 في المئة من السكان، وهم الذين يستطيعون امتلاك سيارة وشقة صغيرة على الأقل. لكن ليس هناك من شك في أن هذا العدد ينمو باضطراد.

ومن جانب آخر، فإن الخبرة المكتسبة من وراء الشركات الأجنبية على مدى عقدين من الزمان قد ساعدت المنشآت الصينية على تحقيق قفزات طويلة وضعتها في المقدمة بين المنافسين. ومع تهافت الشركات الخارجية للدخول إلى السوق الأكبر في العالم، استطاع الشركاء المحليون أن يزيدوا من الطاقة الإنتاجية والملكية الفكرية. حيث إن مصاريف التطوير والبحث بقيت محدودة بالمقاييس العالمية، وإن الحكومة الصينية قد شجعت بحكمة الاستثمارات الخارجية لكي تذهب إلى الحلقة الأضعف من القطاعات الاقتصادية، وذلك عاد بالفائدة على الشركات المحلية. في السنوات القليلة الماضية عندما تهيأت الصين للمنافسة الحادة الخارجية التي تعيّن عليها السماح بها بحسب عضويتها في منظمة التجارة العالمية، دخلت أربعة من أصل خمسة مصارف رئيسة في شراكات إستراتيجية. وقامت هذه المصارف ببيع الحد الأقصى المسموح به من حصتها وهو 20 في المئة إلى منشآت متخصصة مثل مصرف أمريكة Bank Of America لتتمكن من تطبيق إجراءات الإدارة الحديثة. والآن، تقوم المصارف الصينية أيضاً بتلميع صورتها عبر تقديم طائفة عريضة من الخدمات المالية. بالطبع ستجني فولسفاكن الأرباح على المدى القصير في سوق الصين، ولكن حليفتها المحلية شنغهاي أوتوموتيف ستكون هي المستفيد على المدى الطويل.

إن الصين اليوم تنأى بنفسها بعيداً عن صناعة الحقائب المقلدة وكراسي الأطفال، وعن صادراتها التقليدية مثل المنتجات النسيجية والألعاب، وتتوجه نحو منتجات محددة ذات قيمة أعلى كقطع السيارات.

ويظهر أحد المؤشرات كيف أن صادرات الصين التي تركز على التقانة قد تضاعفت مرتين في أثناء عقد من الزمان ما بين سنة 1993، وسنة 2004. ولا يغرب عن الذهن ما حدث في اليابان -وهي لا تزال النموذج المحتذى للتطور من قبل الاقتصاديات الآسيوية (بالرغم من أن القليل من الصينيين يقرون بهذا السبق لخصومهم القدامى). حتى أوائل سبعينيات القرن العشرين كانت المنتجات المهورة «صنع في اليابان» مثاراً للسخرية ويعد من يشتريها كمن علق في ورطة واضحة. ولنتذكر وحوش الغودزيلا التي كانت تبدو وكأنها خيطت من بقايا الدمى البالية. إن الظروف المحيطة بالصين هي ذاتها نسخة مكررة مما كانت عليه اليابان بالأمس القريب: الابتكار المترافق مع أخلاق العمل، وتوفير نسبة عالية من الدخل، وشركات ضخمة وثيقة الصلة بمصالح الحكومة، لكن الصين أكبر من اليابان بخمس وعشرين مرة، ولديها دافع متعطش للتقدم، وعندها المبادرة التي ربما فقدتها اليابان.

لقد بدأت مجموعة هاير Haier العمل بالسير على خيط رفيع عندما تحولت من منشأة حكومية فاشلة إلى رابع أكبر مصنع للسلع البيضاء (ثلاجات، غسالات،...إلخ) في العالم، وتقوم بإشهار تقويمها لكل واحد من عمالها البالغ عددهم خمسين ألفاً، وتحشر أصحاب الدرجات الدنيا منهم في الزاوية. وتروي أحداث فيلم سينمائي ذائع الصيت، صمم بغرض الدعاية قصة استبدالٍ بالميليشيا الشيوعية التي كانت ترمز إلى البطولة رائداً اقتصادياً يمتلك رؤية مستقبلية تقدمية، وفي حالة الشركة هو الإنسان الذي أسس شركة هاير؛ الأسطورة زانغ ريومين Zhang Ruimin. يذهب هذا الريادي الشاب إلى ألمانيا لدراسة إنتاج الجودة، وبعد ذلك

ينتج الذين يعملون لديه بفخر دفعتهم الأولى من الثلاجات، فيأمرهم بإتلاف كل قطعة وتحطيمها إلى أجزاء بواساطة المطارق، ويطلب من العمال أن يعيدوا ثانية بناء ما دمَّروه ولكن من دون أي عيوب.

إن مشكلات هاير الآن هي كيف يمكن لها التحكم في نموها الهائل. في السنوات القليلة الماضية قامت الشركة ببناء ستة مصانع وأوجدت لنفسها كياناً في الولايات المتحدة، والشرق الأوسط، وإفريقيّة، وروسيا. لقد نما دخل الشركة الخارجي بنسبة 51 في المئة عام 2005، محققاً 31 في المئة من إجمالي إيراداتها. لكن الشركة عانت انخفاضاً في الربحية في السنوات القليلة الماضية يعزى جزئياً إلى ثمن التوسع الخارجي والمنافسة الداخلية المستطيرة. وبالرغم من أن حصتها في السوق الداخلي هي 30 في المئة إلا أنها كسائر الشركات الصينية الكبرى لا تستطيع أن تعد نموها في السوق الداخلي أمراً مضموناً على الدوام.

أينما كان، يعمل المديرون التنفيذيون الصينيون ساعات طويلة ويبذلون أقصى الجهد في بلد يعدُّ العمل الشاق ديناً له والعمل ستة أيام في الأسبوع أمراً اعتيادياً. إنهم يملكون المعرفة اللازمة والعلاقات التي تتمخض عن إنتاج أكبر بكلفة أرخص. لقد تعلموا جيداً دروس البدايات وخلق رأس المال في العالم أجمع ويجتهد أولادهم الآن للحصول على شهادات ماجستير الأعمال. اليوم، نرى أن جميع مديري المصانع الذين تلقّوا تدريباتهم على النمط الغربي يقومون بالتوسع على طريقتهم وينتجون بالطريقة التي تحقق مصالحهم.

ملفات جيمس الصينية: أسماء مألوفة في هانغ زهاو

شركة التأمين على الحياة الصينية محدودة المسؤولية

China Life Insurance Co., Ltd.

بورصة شنغهاي: أسهم فئة A، هونغ كونغ: أسهم فئة H

SHA: 601628, A–Shares; HKG: 2628, H–Shares;

بورصة نيويورك: فئات متعددة NYSE: LFC, ADR; OTC: CILJF

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 177.6 في المئة، ارتفاع الإيرادات 91.8 في المئة

واحدة من الرموز الضخمة في حقل يتسم بالتوسع المتسارع (30 في المئة سنوياً منذ عام 1996). مع أفول النظام الاشتراكي «قدر معدني صغير من الأرز»، أصبح من الواجب على الأسر أن تبني بنفسها مظلات الحماية الخاصة بها. وهذا بدوره أدى إلى نشوء طلب ضخم إن لم نقل بالضبط غير متوقع على كل أنماط التأمين، سواءً الصحي، أو التأمين على الحياة، أو برامج التقاعد. وفي خضم سوق يتوقع له قريباً أن يتجاوز عتبة المئة بليون دولار هناك ثلاثة لاعبين رئيسين يمسكون بالخيوط التي تحرك السوق وهم تشاينا لايف China Life، تشاينا بينغ China Ping، وسيرد ذكرهم لاحقاً، والأصغر ضمن المجموعة تشاينا باسيفيك للتأمين China Pacific Insurance، وسيرد ذكرهم لاحقاً علماً بأن حصة الأولى من السوق تبلغ 43 في المئة ولديها ستة وسبعون ألفاً من العاملين وفق آخر المعلومات المتوافرة. وفي حين تواجه المصارف الصينية منافسة متزايدة من أقرانها المحليين والأجانب الذين سمح لهم بالدخول إلى سوق الادخار المحلي بموجب مواد اتفاقية التجارة الحرة WTO، فإن المشتغلين بالتأمين لا يتعرضون حالياً لمثل هذا التهديد المباشر (بالرغم من أن المصارف المحلية قد تُبرِز تدريجياً عروضاً تتضمن خدمات تأمينية).

تشاينا شينهوا للطاقة المحدودة China Shenhua Energy Co., Ltd.

بورصة هونغ كونغ: أسهم فئة H، من فوق المنصة

HKG: 1088, H–shares; OTC: CUAEF

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 92 في المئة، ارتفاع الإيرادات 63.6 في المئة

إن تعاظم قوة الصين العالمية يتلقى التغذية من ازدياد حاجتها للطاقة (كوقود الطاقة). بينما يركز كثير من المستثمرين على شركات النفط، فإن الصين لا تزال تعوّل على الفحم الحجري لتوفير 70 في المئة من قدرتها الكهربائية. تقوم شينهوا بتشغيل أفضل منجم للفحم في الصين، ولها أنشطة أخرى كثيرة. فهي تملك خط سكة الحديد الذي يربط ما بين المناجم في مقاطعة شانزي Shaanxi ومنغوليا الداخلية بشركتها التي تملك ميناءً بحرياً. كما قامت شينهوا أيضاً ببناء محطات للطاقة على طول خط سكة الحديد التي تملكها –وعددها تسع– واستثمرت 1.58 بليون دولار في عملية تحويل الفحم إلى نفط.

شركة شنغهاي للإطارات والمطاط، المحدودة

بورصة شنغهاي: أسهم فئة A، فئة B (مدرجة باسم دبل كوين هولدينغ)

SHA: 600623, A–shares; 900909, B–shares (Double Coin Holdings)

من فوق المنصة OTC: SIRBY, SIRBF

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 24.8 في المئة، ارتفاع الإيرادات 34.5 في المئة

بالرغم من أن شهرتها لا تضاهي شهرة غوديير Goodyear لكنها استمتعت بسنوات جيدة للغاية. تحتل المرتبة الخامسة عشرة في تصنيع الإطارات عالمياً وتسيطر على السوق الداخلي عبر علامتين تجاريتين

هما Double Coin وWarrior (المحارب). لقد بدأت تشتهر عالمياً عبر تصنيعها للإطارات ذات المقاسات الكبيرة المستعملة في سيارات الشحن والقاطرات الرأسية. تألفت الشركة عام 1990، من تكتل احتكاري مملوك للدولة، وبعد عقد من الزمان انطلقت الشركة بعدما صنفت الحكومة إطارات الحمولة من ضمن المنتجات ذات التقنية العالية والمستفيدة من بعض الإلغاءات الضريبية. ثم مضت الشركة في إقامة شراكة مع ميشلان -لكن الآن تدخل الشركتان في منافسة ضارية. وكما أعلن أحد مديري ميشلان أن «الصين ستصبح مسرح المعركة التي ستدور رحاها حول سوق الإطارات».

شركة ألمنيوم الصين المحدودة (شالكو)

Aluminum Corp. of China Ltd. (Chalco)

بورصة شنغهاي: أسهم فئة A، بورصة هونغ كونغ، بورصة نيويورك

SHA: 601600, A – shares; HKG: 2600; NYSE: ACH,ADR

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 86.7 في المئة، ارتفاع الإيرادات 88.8 في المئة

تعد أكبر منتج للألمنيوم الخام في العالم في أسرع سوق للألمنيوم، وهي اليوم ركيزة مجموعة تتألف من شركات أصغر حجماً لإنتاج الألمنيوم. تأسست عام 1999 على أنقاض منشآت كانت تابعة للدولة، وتأثرت شالكو سلباً بعض الشيء بسبب انخفاض الأسعار الناتج عن الزيادة في الإنتاج. وهناك تقارير تفيد أن هذا المصنع للألمنيوم الذي يأتي ثابتاً من حيث الحجم في الترتيب العالمي يخطط لاستحواذات جريئة ربما تتضمن عرضاً لشراء ألكو Alcoa. وبينما تم بناء بعض المصانع الجديدة في الصين فقد

أُغلقت غيرها بسبب ارتفاع تكاليف الكهرباء. لكن الطلب العالمي على هذه السلعة في العالم لا يزال يشهد نمواً مضطرداً.

شركة واوي للتقانة المحدودة Huawei Technologies Co., Ltd.

غير مدرجة ولكن تخطط لإصدارات أولية في بورصة هونغ كونغ

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع في الإيرادات حتى 166.7 في المئة، لا توجد معلومات عن الأرباح.

ألم تسمع من قبل بهذا الاسم؟ إن هذه الشركة العملاقة المملوكة للقطاع الخاص التي تعمل في مجال تجهيزات الاتصالات الهاتفية، استُحدثت من قبل ضابط سابق في الجيش الصيني، وتبيع منتجاتها في أكثر من مئة قطر حول العالم، ولها وجود قوي في الشرق الأوسط ومراكز للأبحاث في الهند، وروسيا، والسويد، والولايات المتحدة. إذا عدنا للماضي في عام 2000 قامت سيسكو Cisco بإقامة دعوى قضائية ضد واوي متهمة إياها بتقليد براءة اختراع قطعة من قطع تجهيزات الاتصال الهاتفي. وتم تسوية القضية خارج جدران المحكمة. تطورت واوي اليوم وذهبت إلى أبعد من أن تكون مقلدة لمنتجات غيرها، وتتسم منتجاتها اليوم بكونها تحفة فنية، وتدعي الشركة اليوم باعتزاز أن 48 من قوتها العاملة تنخرط في حقل الأبحاث والتطوير.

العروش الديناميكية

إن ظهور الصين على خشبة المسرح العالمي لا يمكن أن يأخذ أحداً بالدَّهَش. فإذا كانت شركات الصين الجديدة تظهر ثقة واندفاعاً مدهشين، فإن ذلك ربما يعزى إلى الاحتياطي الهائل من الخبرة في

عالم التجارة والابتكار الراسخ في الصين. بإمكانك القول إنّه: عندما يتم الحديث عن الأعمال فلا يوجد مكان على وجه البسيطة لديه سجل حافل وطويل أكثر من الصين. فيما يتعلق بمبدأ الخلود، يبدو أن الشعب الصيني مدفوع برغبة متينة مغزاها التوكيد، كما يذهب أحد الأمثال الصينية للقول: «كل جيل سيكون أعظم من الذي سبقه».

كلما أمضيتُ وقتاً مع أهل الصين، سواءً كانوا من الاقتصاديين الرائعين، أو البائعين المتواضعين، أسمعهم يشيرون باستمرار إلى النماذج التي سادت في المجالس القديمة، والدروس المستقاة من الشعراء القدماء، وقصص الحذر المروية عن الإستراتيجيات العسكرية التي تعود إلى غابر الزمان. فبالرغم من التوجه السريع في طريق المستقبل الذي تخطو فيه الصين، فإن الماضي في نظرها لا يزال حياً في الوجدان. إن معظم هذا الماضي الذي سادت فيه المملكة الوسطى كما يحلو للصين أن تدعو نفسها، كانت هذه المملكة مركزاً للإبداع والتجارة في وسط أكثر الحضارات المتقدمة من حولها.

وحتى في القرن السادس عشر، عندما أمسك المستكشفون الأوروبيون زمام المبادرة في رحلاتهم المغامرة باتجاه العالم الجديد، انتهى مصير نصف كمية الفضة التي عثر عليها في أمريكة إلى أن ينتهي به المطاف إلى الصين؛ وذلك سداداً للمستحقات التجارية. وكان الاستثناء فقط هو القرنين الماضيين اللذَيْن أُطلقت فيهما صفة «الرجل المريض» في الشرق على صورة الصين. وكمامثّل عدد سكان الصين ثلث البشر في العالم فقد

كان اقتصادها يحتل المرتبة الرابعة عالمياً وعلى قمة الاقتصاديات لنحو زمن قارب ثلث التاريخ البشري.

بصفتي من الزائرين، وقع بصري لأول وهلة على طاقة الصين الإنتاجية خارج حدود العاصمة التليدة زيان Xi'an التي كانت يوماً ما أكبر مدينة على وجه الأرض وعند موقع يدعى بالمحاربين المصنوعين من الصلصال البرتقالي. في هذا المكان يشاهد السائحون أشكالاً فخارية يعود صنعها إلى ثمانية آلاف من السنين؛ تمثل جيشاً هائلاً ينتشر على مساحة ستة عشر ألف قدم مربع، وأخذ من الوقت لصنعه ثمانياً وثلاثين سنة في القرن الثاني قبل الميلاد، وكان الغرض منه حماية الإمبراطور الأول كين Qin حتى عند مماته. وإذا أردنا الحديث عن أول خط تجميع في العالم! شاءت الأقدار أن ترتطم قدما مزارعٍ بأجزاء من الضريح عام 1974، ولا تزال أجزاء منه بانتظار الاكتشاف، ولا يزال علماء الآثار ينقبون عن مكتشفات أخرى. مثل تاج محل في الهند لا يوجد وصف أو صورة يمهد للإعجاب بهذه الإنجازات البشرية الفائقة الروعة، وينطبق الأمر ذاته على التاريخ الصيني وما يحمل في طياته من مفاجآت.

يسدل رجلٌ بيكيني ظلاً طويلاً. قد لا تكون الصين أقدم حضارة على الأرض، ولكن هناك ادعاء وجيه بأنها ربما كانت الأقدم التي لا تزال مستمرة. هناك سجلات عن الحضارات في نهر السند وحوض النيل التي قد تفوق في القدم ما كان سائداً على ضفاف النهر الأصفر، لكن الدليل على زراعة الرز والفن الصيني يعود إلى الوراء نحواً من سبعة آلاف

سنة. ليس بمقدور أي إنسان في العصر الراهن أن يستخدم الأبجدية الهيروغليفية، أو التحدث باللاتينية، بيد أن لغة الصين المكتوبة تطورت منذ ذلك الزمن ولا تزال مفهومة. لكن عندما يدّعي الصينيون أن أمتهم لها جذور ضاربة منذ خمسة آلاف سنة فإنهم ربما يبالغون بعض الشيء. يرجع معظم علماء الآثار تاريخ قدم الممالك الصينية إلى ما يربو على أربعة آلاف سنة مضت.

في الوقت الذي جاهدت فيه كليوباترا للاحتفاظ بسيطرتها على مصر بوساطة علاقة متينة مع يوليوس قيصر، الذي أضحى فيما بعد أول إمبراطور لروما، كانت الصين وقتها موحدة لزمن بعيد تحت ظل عرش هان بين (206 قبل الميلاد و220 ميلادية). وكانت هناك مبادلات تجارية للصين مع الغرب، حتى إن كليوباترا كانت تضم ضمن مقتنياتها النفيسة عباءات حريرية من الصين. في ذروة عهد الدولتين الرومانية والصينية كانت مساحة الأراضي الخاضعة لحكمها متماثلة تقريباً. لكن الفرق بينهما أن أتباع الدولة الرومانية كانوا شعوباً متباعدة، بينما كان الخاضعون للدولة الصينية صينيين في معظمهم؛ مما مكّن الأسرة الحاكمة أن تبقى مدة أربع مئة عام فرضت في أثنائها نظاماً موحداً لكتابة اللغة، وتبنّت قواعد السلوك الاجتماعي المبني على الأخلاقيات والتعاليم التي نادى بها حكيم الصين كونفوشيوس Con fucius، بوصفها القواعد الأساسية لبناء دولة عادلة.

بينما كانت أوروبة غارقة فيما يدعى بالعصور المظلمة، عندما كانت العلوم والتعليم الأساسي أمرين مرفوضين لمصلحة التعاليم الدينية

الضيقة الأفق، تابعت الصين التطوير والابتكار في أثناء ثلاث حقب ذهبية: تانغ 618 – 907 (Tang) ميلادية، سونغ 960 – 1279 (Song)، وان (Yuan 1368 – 1279). وبالإمكان القول: إنه عندما كان العالم الغربي لا يزال عالقاً في المدرسة الابتدائية فإن الصين تخرجت في الجامعة.

يعتقد بعض المؤرخين أن عهد أسرة تانغ كان الأعظم في تاريخ الحضارة البشرية. في ذروة عزها كانت الصين دون أدنى شك أغنى مكان على وجه البسيطة وأكثر «تحضُّراً». كانت جميع الطرق تقود إلى تشانغان Changan (اليوم زيان) التي لم تكن العاصمة فحسب، ولكن أكثر مدينة مأهولة بالسكان على وجه الأرض، وأَعْملَ نمط خط التانغ والفلسفة والتفكير السياسي أثرهم في اليابان، وكوريا، ووسط آسية. وتظهر السجلات التاريخية للطبقات الاجتماعية الرفيعة في عهد التانغ مظاهر ثراء في أسلوب الحياة. كانت النساء تملكْنَ حق الطلاق والملكية العقارية. اختُرع أثناء ذاك العهد الورق والمقتنيات المنقولة كالأثاث. وشهد عهد السونغ أيضاً ازدهار الأدب وصناعة البورسلين. وكان عهد أسرة وان الذي أسسه المحارب المغولي العظيم قوبلاي خان Kublai Khan أول من أصدر العملة الورقية، وأدهش الرحالة مثل ماركو بولو بثروته الطائلة من السلع والمتاجر والأسواق والمنشآت. لقد حكم العرش بكل كفاءة وبراعة وكان يقال في تلك الحقبة من عهد أسرة وان: «إن بإمكان خادمة أن تتجول بأمان وسط الناس وهي متزينة بحلية كبيرة من الذهب في عنقها».

امتد حكم أسرة مينغ Ming من عام 1368 إلى 1644، وتصادف زمنها مع عصر الاكتشافات الأوربية. وفي حقيقة الأمر، إن السفن الشراعية

الصينية التي كانت تجوب البحار في أثناء هذا العصر فاقت أربع مرات من حيث الحجم السفن التي استخدمها كولومبوس، وكانت تستخدم بُوصلات فائقة في الدقة (وهي إبداع صيني آخر). لقد سبقت السفن الصينية غيرها من السفن الأوروبية في استكشاف ساحل إفريقية بنحو قرن من الزمان، ويدعي بعضهم أن هذه السفن قد وصلت في جولاتها إلى الأمريكيتين. لكنّ الصينيين أتوا وذهبوا دون أن يحتلوا أي أراضٍ، وبسرعة نأوا بأنفسهم لاحقاً عن أي تواصل وانطووا على أنفسهم في مدة من العزلة.

وفي الوقت الذي وصل فيه البريطانيون، لم يكن لدى الصين ما تعطيه سوى كنوزها، وتتنازل عن أراضيها، ولتعاني أخيراً الانتشار الواسع في تعاطي الأفيون. وبينما كان الغرب منهمكاً في اختراع المحركات من أجل توفير قوة دافعة لثورته الصناعية، كان عرش كينغ يتلاشى تدريجياً حتى سقوطه عام 1911. لطالما تمنى الطلاب والمثقفون أن تعود الصين إلى عصر الحداثة وتسترشد بالتقدم العلمي والقيم الإنسانية. لكن فيما يتعلق بالصين حتى «تنهض من غفوتها» أخيراً فقد يستغرق الأمر قرناً من الزمان مضطرباً كما سبق وحذر نابوليون- من أمراء الحرب إلى الغزو الياباني، ومن ثمّ إلى الحرب الأهلية التي حطت أوزارها عام 1949 بانتصار الشيوعيين: كل ذلك أسهم بطريقة أو بأخرى في التسبب بالأذى لمناخ الاستثمار.

حتى الآن لا تزال الأحكام الصادرة حول أداء زعيم الثورة الصينية ماوتسي تونغ مسيّرة بالعواطف أكثر من الحقائق. لا ينكر أحد حتى

زعيم الحزب الشيوعي قيام ماو بارتكاب «أخطاء» جسيمة؛ لقد تسرّع في عملية التصنيع عندما أمر الفلاحين بإذابة أدوات الطعام الخاصة بهم كالشوكة والملعقة للحصول على الصلب -ثم إنه فرّط في أفضل العقول في البلاد وأكثرها استنارة عندما أجبر أصحابها على ترك المدارس والانخراط في معسكرات العمل. لقد تركت المغامرات الكثيرة المتذبذبة وحملات التطهير للزعيم المراوغ وإدارته الفردية غير المقنعة، فملايين البشر يتضوّرون جوعاً ويعانون الاضطهاد -وأشرف بالبلاد على حافة الإفلاس بالرغم من عقود من الزمان بذلت في بناء المصانع. لكن قد يحاجج أحد في أن نظام الحزب الشيوعي الصيني قد هيأ المسرح لتطور متأخر بتشجيعه العلوم الحديثة، وهناك من يقول: إنه في الوقت الذي أسس فيه ماو وجماعته نظاماً فرض إرادة جماعية وطاعة عمياء ارتفعت فوق المبادرات الشخصية، فقد حررت الجمهورية الشعبية بغفلة منها أو بعدمها عامةَ الشعب من الأنماط القديمة للمصير المحتوم واستغلال النزاعات. ودونما أي قصد، أعطى هذا التفكير الجديد الذي غُرس في العقول الناسَ الثقةَ التي مكنتهم من الازدهار في ظل نظام اقتصادي يعتمد على السوق وهو الذي أدى بدوره إلى النهضة الهائلة التي تشهدها الصين في يومنا هذا.

إلى ما قبل عام 1949، عمد الصينيون إلى إدارة مصانع الصلب ومناجم الفحم. وبالشراكة مع أهل بلادهم الذين سافروا وراء البحار تمكنوا من تأسيس واحدة من أكثر الشبكات نشاطاً في مجال الاستيراد والتصدير. ولم تتوقف حماستهم المفرطة لممارسة التجارة كثيراً عبر أربعين عاماً من النظام الاشتراكي الذي كان بمنزلة متنفس لهم.

ولما أصبحت الصين قوية ومترابطة، صارت عريضة القاعدة فيما يدعى بـ «الصين العظيمة»، وهي الحقيقة التي لا يعلمها سوى قليل من الأمريكيين. في البداية كانت هناك تايوان وهي ثاني أكبر مسهم لتدفق الاستثمارات الخارجية المباشرة، وتأتي ثانية بعد هونغ كونغ. ومنذ أن رفعت الحكومة التايوانية القيود على الاستثمار في الجمهورية الشعبية في عام 2001، تدفق آلاف التايوانيين من رجال الأعمال إلى البر الصيني ليستفيدوا من رخص تكاليف الإنتاج.

ولم تكن عودة هونغ كونغ إلى الصين عام 1997 أمراً رمزياً فقط: فبحلول عام 2001، كان حجم الاستثمارات التي كان مصدرها هونغ كونغ يقارب 175 بليون دولار أمريكي. ولم تعد أعمال المصارف والخبرات الاستثمارية لتقدر بثمن على أرض هونغ كونغ التي بنيت من قبل أهل شنغهاي الذين هربوا ذات يوم من قبضة النظام الشيوعي. حتى سنغافورة البعيدة وهي معقل صيني فائق القوة كان لها علاقات حميمة ومثمرة مع البر الصيني.

ولا يزال هناك حليف الصين الأكبر، وهو أمة ليس لها حدود تدعى في الصين بـ «إخواننا المواطنون في المهجر»، وهم جيل عملاق مما يعرف بالصينيين في الشتات والذين انحدروا من عصر كانت فيه الصين بلداً فقيراً يحلم أهله بالفرار منه؛ هناك ما يقدر بخمسة وستين مليوناً من العرق الصيني يعيشون حول العالم. (هناك أحد عشر مليوناً من مقاطعة فوجيان وحدها). ولم يقطع أولئك الناس أنفسهم من جذورهم

لكي يقدموا حساء الزلابية فقط. في عام 2000، أشارت التقديرات إلى أن دخل هؤلاء المهاجرين مجتمعين وصل إلى 45 بليون دولار كناتج قومي إجمالي في السنة؛ بمقدار لا يبعد كثيراً عن الناتج القومي في بلد كأستراليا. في جنوب شرق آسية، استحوذت الأقليات الصينية بوجه خاص على حصة ضخمة لها ثقلها من اقتصاديات البلدان التي تعيش فيها، مما أثار الكراهيات والمذابح القاسية. يوجد في تايلاند أكبر عدد من الذين ينحدرون من أصول صينية ويستحوذون على ما يقدر بخمسة وثمانين في المئة من مقدَّرات البلاد. ولهم سيطرة مماثلة في ماليزيا وإندونيسيا والفلبين. وهؤلاء ليسوا منفتحين على التجارة فقط مع بلد أجدادهم، لكنهم يعودون غربيين -ذريّة مثقّفة لديها رأسمال وخبرة لتساعد في بناء أمة تركتها أسرهم في الماضي.

وما وراء هذه الموارد ومجالات التقدم، تملك الصين رأس مال فكري متنام. هذه ثقافة لطالما وضعت أعلى القيم والأولوية للتعلم كأمر بديهي؛ انظر فقط كما عمدت أنا على المساحات الواسعة في مسقط رأس كونفوشيوس في كوفو Qufu المليئة بالألواح الحجرية التي تؤدي تحية الشرف إلى ألمع العلماء مثلما فعلت مجتمعات أخرى للمحاربين المتوحشين. اليوم، يتقاطر من الصين أفضل وألمع الطلاب على جامعات التقانة وجامعات مثل أكسفورد المنتشرة في العالم، حتى ضمن الصين، تدفع الجامعات بأكثر من أربع مئة ألف خريج من المهندسين في السنة، مقارنة بمئتي ألف في اليابان، وثمانين ألفاً في الهند، وستين ألفاً في الولايات المتحدة. وكلما ارتقت القوة العاملة ذات الياقات البيض في الصين وأصبحت

أكثر تعليماً، وجاءت أيضاً الشركات مثل إنتل Intel وموتورولا Motorola بمخابر البحث إلى الصين من أجل التمتع بمزايا التكاليف المنخفضة، فإن الناس الذين اخترعوا البارود والطباعة سيسعون وراء اكتشاف حلول جديدة في مجالات الطاقة، والتقانة، حتى الفضاء الخارجي.

ويمكن المحاججة في أن الصين لا تزال تتعافى من الخوف واستبداد العهد الشيوعي، ولا تزال تمارس التقليد للمجتمع الغربي فيما يمكن أن تقدمه. بالتأكيد، لقد بدأ للتو محرك الابتكار الصيني يتسارع في دوراته. ولكن من ذا الذي يراهن ضد البلد التي صنعت عربة اليد، وركاب الفرس وعدة الفروسية، وصبّ الحديد وفرن التفجير، والألعاب النارية والمدافع، والوخز بالإبر، والساعة، والطائرة الورقية، والمروحة اليدوية، وورق اللعب، واليويو، ودفة السفينة والبوصلة، ونموذج النظام الشمسي، وأول نماذج الدفع البخاري؟

إن حجم الصين وماضيها التليد يوفر مزية أخرى لاندفاعات الصين: الطموح على مقياس واسع. عندما وضع المديرون التنفيذيون لوادي السيليكون نصب أعينهم أن يكونوا الأفضل، فقد كانوا يتحدثون عن شريحة من السكان أصغر من أي مقاطعة صينية. فيما يتعلق بالطبقة الإدارية في الصين، فإنه لا يرَوّعها ويرهبها على الإطلاق أن تخطط لأجل عدد كبير كمئات الآلاف من العمال أو مئات الملايين من الوحدات الإنتاجية.

كثُرٌ هم الصينيون الذين يحققون ثروات طائلة بين ليلة وضحاها، مثلهم مثل من هاجر منهم ووِطئَت رجلاه الأرض الأمريكية التي أتاحت

فرصاً هائلة للتوسع. ففي شينغدو Chengdu من مقاطعة سيشوان، هناك شاب اسمه دينغ هونغ Deng Hong الذي يدعى أيضاً هوراتيو آلجر Horatio Alger. كرجل في مقتبل العمر فقد سافر إلى الولايات المتحدة سعياً وراء الثروة، لكنه عاد إلى وطنه الأم ومعه خمسون دولاراً فقط. اليوم، قام هذا البارون العقاري ببناء أكبر مركز للمؤتمرات في آسية، محاط من كل جوانبه بغابة حقيقية اقتلعت من التيبت، ويستوعب خمسين ألفاً من الحضور.

في المدينة نفسها، حصد فان جيان شوان Fan Jianchuan، الذي أفنى أحد عشر عاماً من عمره جندياً فقيراً على الجبهة الشمالية للصين، معظم الثروة الهائلة لديه في سوق العقارات منذ أن أوجد متحف مدينة جيان شوان المؤلف من ثلاثة وعشرين مبنى منفصلاً. ربما يكون هذا المجمع أكبر فناء خاص بالمعروضات في العالم ويستضيف بين أرجائه مقتنيات واسعة من المصنوعات التاريخية في القرن العشرين. تذكر القول: «فقط في أمريكة؟» إن هذه الأشياء يمكن أن تحدث فقط في الصين. الآن، وهنا، يمكنك أن تجد أناساً يحلمون بشاشة عرض كبيرة ملونة وكاملة.

لقد أولى باقي العالم انتباهه دوماً وتأثر بما يحدث في الصين. وليست هذه أول مرة تفاعلت فيها الصين مع الغرب، لكن الروابط الآن أقوى مما كانت عليه، وطاقة الإنتاج هي أكبر كثيراً. فبوجود الاتصالات والتجارة على مستوى عالمي، فإن قوة الصين البديهية ستتعاظم وجوائزها يمكن أن تكون استثنائية.

ملفات جيم الصينية: خمسة مبتكرين صينيين معاصرين

فوكس ميديا هولدينغ المحدودة .Focus Media Holding Ltd

مؤشر ناسداك NASDAQ: FMCN

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 230.39 في المئة، ارتفاع الإيرادات 630.2 في المئة

بدأ النجاح فقط في الصين عبر فكرة يعود تاريخها لاثنين وثلاثين عاماً وهي تعليق شاشات فيديو في المصاعد الكهربائية البطيئة الحركة، وفي وقتها نمت فوكس ميديا التي صار لديها 85.000 شاشة عرض و99.000 من إطارات الدعاية في مراكز الصين التجارية، والمطارات،...إلخ. ومنذ أن استطاعت تأمين اتفاق تجريبي شمل خمسين بناءً في شنغهاي، تصف الشركة نفسها الآن بأنها «أكبر شركة للدعاية خارج المنازل عن نماذج الحياة العصرية وبمستويات مختلفة». وبعد تمكنها من جمع مبلغ 127 مليون دولار عام 2005 ضمن سوقها الأمريكي، بدأت الشركة في امتلاك الشركات المنافسة، وتتوسع حالياً في مجال الدعاية بوساطة الشبكة العالمية «الإنترنت».

بايدو كوم .Baidu. Com Inc

مؤشر ناسداك NASDAQ: BIDU, ADR

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح إلى 2,412.7 في المئة، ارتفاع الإيرادات 613.4 في المئة

استحدثت غوغل الصين China Google عام 2000، بايدو، وهي محرك الأبحاث الرئيس في السوق الصينية وتستحوذ على حصة قدرها 62.1 في المئة من مجمل السوق حتى وقت قريب وهناك 137 مليون مستخدم وذلك حسب أرقام شهر أيار 2007 -التي أعلنها مركز شبكة إنترنت الصين. وتتلخص خطة بايدو في توفير وسائل البحث المتلائمة مع حاجات الصينيين

واللغة الصينية، بالرغم من أنها أعلنت عن خطط لدخول سوق اليابان وفيتنام. وقد بدأت حديثاً في خدمة الموسيقى بالتعاون مع شركة EMI، وتدخل في اتفاقات مع الجامعات الصينية في محاولة منها لخطف قصب السبق من غوغل في تأسيس أول مكتبة في البلاد عبر الإنترنت.

تشانيا تيك فيث وايرلس كوم. تكنولوجي المحدودة

China Tech Faith Wireless Comm. Technology Ltd.

«شركة ثقة تقانة الاتصالات اللاسلكية الصينية المحدودة»

مؤشر ناسداك NASDAQ: CNTF, ADR

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 735 في المئة، ارتفاع الإيرادات 831.1 في المئة

إن كُلاً من إنتل وكوالكوم Intel & Qualcomm هما من المستثمرين الإستراتيجيين في شركة الاتصالات الهاتفية هذه التي تأسست عام 2002. ومن المثير للعجب أن تسعين في المئة من موظفي الشركة هم من المهندسين. ويتخصصون في تصميم هواتف اليد، والهواتف الذكية، والبرامج في البلد الذي يوجد فيه أكبر عدد من الهواتف النقّالة. ثمّ إن للشركة مبيعاتها في أوروبة ودخلت في شراكات مع الأسماء الأجنبية اللامعة، بما في ذلك فيليبس وإن إي سي NEC.

شركة صن تك باور هولدينغز المحدودة

Suntech Power Holdings Co., Ltd.

بورصة نيويورك NYSE: STP, ADR

منحى ثلاث سنوات: ارتفاع الأرباح 476.9 في المئة، ارتفاع الإيرادات 602.2 في المئة

كما سيأتي ذكره لاحقاً، فإن الصين سائرة في طريقها لتصبح متصدرة العالم في صناعة واستخدام تقانة الطاقة الشمسية. تأسست عام 2001 من قبل عالم متميز باحث في خلايا الكهرباء الضوئية، أضحت الشركة واحدة من العشر الأوائل من المصنعين لتلك الخلايا. ثم إن الشركة أنتجت التقانة «الخضراء» ذات الصلة. وعندما يحين أوان الألعاب الأولمبية في بكين «الخضراء» (لخلوها من ملوثات الهواء) فإن صن تيك ستوفر الطاقة النقية للملاعب.

مجموعة علي بابا Alibaba Group

غير مدرجة للآن ولديها خطط لعرض إصدارات أولى

في بورصة هونغ كونغ

منحى ثلاث سنوات: لا توجد أرقام معلنة للأرباح والإيرادات

استحدثت من قبل أستاذ إنكليزي اسمه جاك ما Jack Ma بوصفها صعيداً تلتقي فيه منشآت العمل لممارسة التجارة الإلكترونية وخصصت للمصانع الصينية الصغيرة التي ترغب فيمن يريدون شراءها من الخارج. وبعد عدة جولات من الاستثمار بوساطة أموال تعود لأفراد عاديين، كبرت علي بابا لتصبح منشأة لتسهيل تجارة إلكترونية متعددة الأغراض ضمت إلى جعبتها تاوباو Taobao وهو موقع دائم على الإنترنت للمزادات يشبه إي بيه eBay التي تحتل الصدارة بين مواقع المزادات في الصين، وكذلك ألي بي Alipay وهو نظام إلكتروني على الشبكة الدولية على مدى الساعة يتولى تسديد صفقات التجارة الإلكترونية ويشبه في

عمله بيي بال Paypal. وازدهر هذا الأخير بوصفه نظاماً أخذ على عاتقه ضمان وصول المشتريات، لأن الكثير من الصينيين ما زالوا لا يملكون بطاقات ائتمان. لقد دفعت ياهو Yahoo لمجموعة علي بابا بليون دولار مقابل حصة قدرها 40% وفي المقابل تتولى علي بابا إدارة الشركة التابعة لياهو، التي تمارس عملها في الصين.

السؤال عن اليوان Yuan (العملة الصينية)

إذاً كيف تمارس اختيارك بين الشركات المتجذرة في الممارسات الغابرة حين لم ينالوا حظاً في الماضي ما عدا ومضة خاطفة من عين حارس شاب في الجيش الأحمر منذ ثلاثين عاماً؟

وإذا استطاع المديرون الصينيون اليوم أن يستفيدوا من الأعراف القديمة، فإن لديهم إمكانات شابة في المئوية الجديدة.

وإن الشركات الصينية التي اعتادت على العمل وفق الأساسيات يمكنها إلقاء نظرة سريعة على النمو المتوقع في بلدها، والاستفادة من الفرص المهيأة لها في إفريقية أو حتى أمريكة الجنوبية، وهي أسواق ربما تعدّها الشركات الغربية المتعددة الأنشطة «مثبطة»، وبالطريقة نفسها تستطيع الشركات المحلية أحياناً أن تواكب أكثر الأذواق السائدة في الداخل. في عام 1999، ابتكرت شركة لينوفو Lenovo وهي المصنعة للحواسيب الشخصية في الصين التي ابتاعت فرع آي بي إم حاسوباً منزلياً حيث أصبح واحداً من الصرعات في المناطق الريفية. لقد عُدَّ هذا الحاسوب ذو اللون الأحمر الذي كُنِيَ في السوق باسم «المنة

السماوية» محظوظاً، وقام الآباء بشرائه لتقديمه مهراً للعروس المقدمة على الزواج.

من جهة أخرى، نرى أن موتورولا صاحبة الريادة في الصين بالنسبة إلى الأجهزة السمعية التي تثبت على الرأس، وكذلك إضافات الهواتف (الإكسسوارات) بدأت تفقد حصتها في السوق لمصلحة منشآت صينية محلية مثل نينغبو بيرد Ningbo Bird، التي لا يجري اسمها على اللسان بسهولة ولكنها تستطيع الاستجابة بسرعة أكبر لأذواق المستهلكين. وبالعودة إلى عام 1999، نلاحظ أن الحكومة الصينية اختارت تسع منشآت لتدخل في حقل الهاتف النقال، وكانت نينغبو بيرد الشركة الوحيدة غير المملوكة من قبل الدولة. لقد اختارت الشركة بحكمة أن تصبح رائدة في تصنيع أجهزة الاستدعاء (بيجر Pager) - وأذكر أن هذه الأجهزة صار لها شعبية هائلة في الصين، بحيث إن وضع هذا لجهاز على خاصرة أي موظف في مكتب كان مبعثاً للفخر. وبالبناء على هذه الأرضية سعت الشركة نحو شركاء أجانب ذوي إمكانيات ليست بالكبيرة ولديهم الحماسة لدخول سوق الصين، مثل ساغم Sagem وبينك BenQ، ومن ثم قامت الشركة ببناء قسم الأبحاث الخاص بها. اليوم لا تزال نينغبو بيرد تركز أنشطة مبيعاتها داخل المدن الصغيرة التي لا تعيرها أحياناً الشركات الأكبر أي اهتمام، وكذلك الإكثار من نماذج أجهزة توصيل الرسائل ذات الشعبية الواسعة.

ولا يزال، على ما أعتقد، من السذاجة التي تصل إلى حد الخطورة الافتراضُ أن الشركات الصينية تملك بالسليقة قدرة على السير للأمام.

كما يمكن لكثير من الشركات الأجنبية أن تشهد بأن المرء لا يحتاج إلى نظرة كونفوشيوسية كشرط للنجاح في الصين. بعد ثلاث سنوات من نشر كتاب في عام 2002 يصف الصين بأنها وهم سيتحول إلى كابوس بالنسبة إلى جنرال موتورز وغيرها من المستثمرين الأجانب، أعلنت جنرال موتورز أن مبيعاتها من وسائط النقل نمت بنسبة 35 في المئة مقارنة بالسنة التي سبقتها ليصل الرقم إلى 665,390 وحدة. تحقق جنرال موتورز الآن أرباحاً في الصين تفوق تلك المحققة في أمريكا الشمالية. لقد استطاعت الشركات الغربية الولوج بكل انسيابية في العديد من الأسواق المتنوعة عبر العالم، وهي بالتأكيد تقوم الشيء ذاته في الصين. لقد تنبأ بعضهم أن الصينيين الذين لا يتقبّلون اللاكتوز لن يكون بمقدورهم تقبل الجبن الكثيف المسكوب على عجينة رقائق البيتزا ولكن لا تقل هذا أبداً على بيتزا هات Pizza Hut!.

ثم إنه لا توجد صلة أبداً فيما إذا كانت الشركة نتاجاً متطوراً من منشأة متعثرة مملوكة من قبل الدولة. يميل الأمريكيون على وجه الخصوص إلى القفز إلى الاستنتاج القائل: إن الإدارة الخاصة هي الأفضل. حتى في أوروبة لا تزال الحكومات تحتفظ رمزياً «بحصة ذهبية» في العديد من الشركات التي تعد حيوية للرخاء الوطني، ولهذه الحكومات تأثير واضح فيها. وإن إسهام الشركات المملوكة للدولة في الناتج القومي الإجمالي في الصين، التي هبطت إلى عشرة في المئة منذ عقد مضى، قد نهضت من عثرتها وتبلغ الآن عشرين في المئة. في الحقيقة، في عام 2006، أظهرت الشركات التسع والخمسون الخاضعة لإشراف الدولة أرباحاً عالية قياسية بلغت 92.3 بليون دولار أمريكي.

في الصين وهي بلد قامت فيه بعض قِطَع جيش التحرير الشعبي بأخذ جانب من أنشطتها نحو التصنيع بدءاً من رقائق السيليكون إلى الأندية الليلية، وإن من أكثر المديرين براعة هم الذين عملوا في وزارات الدولة. بالرغم من أن الصداقة الحميمة والترقيات عبر الأقدمية كانت يوماً ما الطريق الطبيعي لأداء العمل، فإن مجالس الإدارة الحكومية التي تشرف على شركات القطاع العام قد مضت منذ زمن في تعيين مديرين رائعين في مقتبل العمر، مثل المديرين الماليين لكل من شركتي شالكو وشينهوا اللتين مر ذكرهما آنفاً.

في الوقت ذاته، على المرء أن يقرأ ما بين سطور قائمة الدخل ويفحص مجمل الصناعة المعنية قبل أن يقرر فيما إذا كان المصنع رقم 17 ذائع الصيت المملوك من قبل القطاع العام الذي يحدث جلبة وجعجعة هو في الحقيقة مصنع خردة عفا عليه الزمن موجود في بيئة غير تنافسية ويحظى بدعم الدولة لإحيائه بطريقة مصطنعة. إن بعض المنشآت العائدة للدولة هي أسرّة متفسِّخة من القرابات الأسرية، وبعضها الآخر ديناميكي ويسير في الاتجاه الصحيح. أمعنِ النظر فيما وراء الأسماء البراقة المثبتة على الأبواب لترى فيما إذا كانت الإيرادات تراوح مكانها أم أنَّ هناك طلباً مرتفعاً على المنتج.

خذ أولاً نظرة على الصناعة كلها. بمجرد تسليط الضوء على الزراعة، والسياحة، وموارد المياه، وصناعات خدمية مختارة فإنها قد تكون عرضة لانحدارات أو فقاعات. فبينما كان يعني ضم الصين إلى منظمة التجارة

الدولية عام 2001 دخولاً أوسع للصين من قبل المنشآت الأجنبية في مجالات جديدة وتخفيضاً لأسوأ التعريفات الجمركية المفروضة بغرض الحماية، فإن المنشآت المحلية ستواجه على الأغلب التحدي الأكبر من الخارج عبر حقول جديدة كعمل المصارف، وتجارة التجزئة، وخدمات الإنترنت. ولكن كان هناك تأثير ضئيل أو لا وجود له في بعض النواحي الأكثر جاذبية، مثل سلع المستهلك، والإلكترونيات، والاتصالات الهاتفية.

وحالياً، استطاع العديد من المنشآت الصينية تأمين مواقع متقدمة لأنفسها، في حين أن منافسة الحاضر الشديدة ستهز عدداً أكبر من أركان الصناعات وتقذف بهم بعيداً. لكن في الصين وكما في كل مكان، من المفيد الإجابة عن هذه الأسئلة: هل على الشركة التزامات كبيرة تجاه دائنيها؟ هل تتمتع بهامش جيد للأرباح؟ هل تنمو بنحو أنيق؟ هل يوجد لدى إدارتها حوافز تدفعها للنجاح (كامتلاك حصة كبيرة من الأسهم أو ممارسة الخيارات على سبيل المثال)؟ هل تواجه منافسة حادّة أم أنها اللاعب المسيطر؟ هل هي قيادي أم تابع؟ هل هي في سوق ينمو مثلاً أجهزة الاستماع الحديثة (Ipod) بدلاً من أحذية ركوب الخيل، بي إم دبليو BMW بدلاً من الدراجات الهوائية.

إن التسوق بغرض شراء علامات تجارية صينية هو أشبه ما يكون بجولة في المتجر الكبير (سوبر ماركت) سواء في وول-مارت Wal-Mart أو في المنشأة التجارية الأولى في الصين ليانهوا Lianhua. اقرأ لصاقة التعريف، وافحص الأشياء المميزة، وفوق ذلك كله تعرّف جيداً السلعَ الموضوعة على الرفوف.